مبارك وساط

فراشة من هيدروجين

(شِعر)

طبعة ثانية 2020

منشورات حِبْر

مبارك وساط

فراشة من هيدروجين

(شِعر)

صيغة مُراجعة ومُنَقَّحة

طبعة ثانية- رقمية- 2020

بعد طبعة أولى، ورقية: دار النهضة العربيّة، بيروت، 2008

إهـداء:

إلى خديجة

كوكبٌ مُعربد...

كوكبٌ مُعرْبد

فوق رأسي

ينزفُ مطراً

قاتماً، يملأُ جِراري

بألم الأعشاب بِقلق

الطّير

تبْقى يداي سعيدتين

بعد أن يهمسَ لهُما النَّبيذ

بنشيد طفولته

لفائـف سحريـة (1)

نحن وحيدان في هذا المقهى

ولا نأمةَ تصلُ آذاننا، عدا

هسيسِ عِظام فجر

يَشيخ سعيداً

نُنصت، نُدخّن لفائفَ

سِحريَّة، يخفّ وزنُنا

نرتفعُ، مُبدّدَيْن في

الهواء، مَطراً

ونُدَف ثَلج...

الأرْضُ نفْسُها

داخَتْ، فما عادتْ تجتذبنا

ويبدو أنّها كفّتْ

عن الدّوران!

غربانٌ تحسبُ أنّها كواكب

بدأتْ تدور حولها

لفائف سحرية (2)

نُغنّي بألسنةِ الذين ركضوا

بِمُجرَّدِ ما وُلِدوا

فِيما ثلاثُ غيمات

تُحتضر حَوْل رأسينا

الأُمّهاتُ في هذا المقهى

أقلُّ من أسمائهنّ

دخّنّا ودخنا

فمضتْ عظامُنا

لِتؤازرَ أخانا المطر

أخانا السّاقط لكنّنا

نُبجّله

مِن الدّخان صُغْنا أطفالاً

دَلفوا إلى بطن أم

وهناك تلألؤوا

لفائف سحريّة (3)

مِن حولنا قلوبٌ صغيرة تُشقشِق

وصناديقُ يُقالُ فيها الحديد فيه

بأسٌ شديد

لكنّنا ندخّن وجداولُ النّسيم

بحُنُوّ تُلامس أكتافنا

نعلمُ أنّ جسدينا قد يضيعان

في هذه العاصفة

من التّصْفيق

الآبار محظورةٌ في هذا المكان

إنّه المقهى الذي وأدوا

تحْت آلام القمر

يَومها، تركْـنا رأسينا في غابة

لِتستعملها العنادل

المضروبةُ الأعناق

تـرْسـو المُـرَبّـعات

رغْمَ أني مُخْترع

بارومتر الآلام

فقد سئمتُ المكوث في هذه الجزيرة

كلّما انزاحتْ نحو السّاحل

أقول: إنّه النّسيم الهائم

كلّما بدأنا نتأمّل الشّفق، كلٌّ

في قَعر كأسه

إلا وترسو قُرب رؤوسنا المُرَبّعات

التي تأسر بين أضلاعها العَصافير

ويوم أُعيدت إلينا أنْفاسُ الغابة

بدأتْ أرقامنا

تـتـبَـعُـنا!

ثمّ سقط وجهي الحجري

على وجهي

وها إنّي أزْمعْتُ الرحيل

بعيداً، بعيداً

حتّى مدينة المعارك

التي تنزلق على جُدرانها

الكدمات

حتّى ضِفّة النّهر الذي يُدَندن

كُلّما ابتسمَ فيه غريق

حتّى الصّحْراء

أُفكّر: لِمَ كلّ هذي الدّموع

التي تتشكَّل خِفْيةً

تحْت أظافرِنا

ولِمَ تتوجّسُ الأشْجار

من شُعوب العصافير

أفكِّر: يجبُ أنْ نستمرّ في السّير

حتّى الصّحراء

التي تَنْبت فيها المسامير

أحياناً، يبدو لي

أنَّه لا مبرّر لوجودي

سوى أني زاويةٌ

في مُثلَّثِ رعشاتٍ

بزْقٌ في غابة

شررٌ في عيون الصّيف

في ربيع العمر

رأفةً، لمْ نُوقظ الدّموع

المتمدّدة جنب رأسينا

وكلَّما عمّ الأرق

أعاليَ الجبال

زوّدْنا الجداولَ المُنْهَكة

بنغمات ومُسكّنات

كُنَّا بعدُ في ربيع العُمر

فما إنْ ضربنا خِياماً

لقبيلة الرّضّع التائهين

حتَّى دفعتْ بنا العصافير توّاً

إلى مشارف السّتين

واحدٌ منها امتزج بهمسك

ثمّ طار بعيوننا فلم نعدْ

نُدرك منه

إلا الرّفيف!

لكنّنا، بكلّ تأكيد

سنسترجع هاتيك العيون

حين تسقط مع الثّلوج

في صباح شتائي

خيرٍ

من ألف شهر

أصنعُ سهاماً

من شَعْري طارت فراشات

يمكنها أن تلسع وتُدْمي

ومتى أشأْ، تَزْدادُ

ضراوةً

لمْ أكنْ قطّ مستكيناً

والآن أصْنعُ سهاماً

من قَطراتِ نَبيذ

ليتَ لي

«ليت لي قلباً بقلبي...»،

حقّاً يا أبا نواس

قَلبٌ أوّل يُمْكنه أنْ يُحلّق

أخاً للطّيور، وأنْ

يتألّم، يُهصَر ويَتبدّد

وآخرُ يسهرُ عليّ

يُفرّق عني جيوش الأرق

ولا يتْرُكُني أمنح ابتساماتي

المسكوكة من بُقَع الضّوء

ولا خُطُواتي

لهذي الهاوية التي تتبرّج

أمام قدميّ

لا يتركني أنْثُرُ لحظاتِ تمرّدي

على نوم الأعْشاب

حيرة

لمْ أنصبْ فخّاً لطائر

نِمتُ قليلاً جنْبَ شَجرة

وانْغرسَ حُلمُ الطّائر

حتّى أسافلِ جذورِها

أحْلامي أنا مُشَـتـتـة

في الآبار

وثمّة عينٌ تجوس

دائرةَ الصّفر نفسه

الذي رَسَمَتْهُ أنْفاسي

أمضي في سبيلي الوَعْر

وإذا ما تعثّرْتُ وسَـقَـطْت

يَبْعـثُني الضّحكُ واقفاً حتّى الغيمة

التي كانتْ أمّي قد سلّمَتْها

إلى سماء الأيتام

أمْضي في طريقي الوَعْر

لا أقلقُ إنْ كانتْ قدماي المارقتان

تنبُشان المثلَّثات تنفُشان ريشَها

ولا آبهُ حتّى بصورتي التي

بدأتْ تُـثـقـِّبُ المرآة

فما الذي يُمْكن أنْ أفعله

بكلّ تلك الحبال التي ستتدلّى

من هاتيك الثـقوب

-أنا الذي رأيْتُ يوماً

جدولاً

يتسلّل

من فتق في ستارة-

وقلت: جاء لِيتحصّن

وماذا يُمْكن أن يرى طائر

في حُلم

ما الذي تستطيعُه الشّجرة

بعد أنْ تمّ تأجيلُ المطر

وأين طريقي، الآن

وقد بدأ الضّوء يتخفّى

في الذّهب؟

ذِكْرى

كان عليّ أن أكون حاضراً

أثناءَ الاستقبال

أنْ أحتمل كلّ تلك القسوة

أنا الذي لمْ أقُلْ يوما لجدول:

اُصمُتْ

أنا الذي كنْتُ أشْتري النّوم

بنقودٍ مسكوكة من أعصاب الجبين

ولا أرى في الحُلم سوى

شجرةٍ مِن ماء

فيها يغرقُ العُصْفور

وتنْطفئُ جمرةُ الرّيح

قم لتكون حاضراً للاستقبال

قال أبي

ذلك أنّ أَحَد أسلافنا

قدْ أبْحر

من ميناء الموتى

بِحنين

أحياناً، أستدرجُ كوابيس

إلى غرفة نومي

صمتي جَبَلٌ

مكسوّ بالجليد

فما عليّ إلا أنْ أُمسك

عن الكلام

لأتزلَّج وأنْتَشي

لكنْ أمتعُ من هذا

بعضُ الكوابيس

التي تندثرُ فيها سُلالات

وتتبخّر جُزُر مغناج

وتتذكّر الصّحراءُ البحر

بحنين

البِئر

(كما في حُلم!)

كان بُخارٌ ونصالُ النّغم تتصاعد من البئر التي يُنْكران وُجودَها في غُرفة الفُنْدُقِ هاته وأنا أؤكِّدُه... عبثاً يَسْعَيان- جاري وِلْيام الأرمني والخادمة- إلى إقناعي!

الخادمة بِكاميراها التي لم تعدْ تلتقطُ صُوَراً إلا لطائر يَقضي الليل في شَعْرِها تُقدّمُ لي كأساً، أما وِليام فيتمشّى في الرّدْهة... رغْمَ شَعْرِهِ الكثيف فإنّه يَمْشي كأصْلع، وهذا من غريب التّصَنّع! كما أنّه سَيَمْضي إلى الدّغل ويجمعُ أرمينيات من الأعشاش ليعيش فيها حين لا نكون نراه...

تُحَدثني الخادمة عنْ رَجُلٍ اخْتزَلَ بَيْتهُ إلى مُكَعَّب صَغير، فيما تَصْنعُ شُموعاً من د موع، ومن النّافذة، يَدْخُل الضّوء مكسوراً ومُرَمّماً.

ثمّ ها وليام، تتوالى على وَجْهه طَرَقاتُ المِلح، وهو يتكلّم!

عبثاً يُحاولان زَعْزَعَة يقيني! ...

يُحاولان تشكيكي، لكنّني أبْقى

واثِقاً كخُطْوَة تحت المطر...

فليُقْـضَ عليّ بالبقاء

في غُرْبَتي هاته

مع رائحة النّمل التي تَطنّ

حول المصباح

ولأبْقَ أسيرَ هاء الهواء

إنْ كانتْ لا توجَدُ بئر

في هذه الغُرْفة

رسـالـة إلى نفسي

أنا على ضفّة نهر.

السّماء مُلبّدة

بِزعيق صفّارات الإنذار

في أحد الكواكب.

أسْمع أيضاً قرعاً في عظامي

فكأنّها طبول دقيقة.

في وسط النّهر، تَظهر السّمكة

آكلةُ الغرقى.

على الضّفة المُقابلة، امرأةٌ تتعرّى.

وها هي تَسبح على ظهرها، تتلذّذ

مِن رُكبتيها.

تُقْبل نحوي ثم تعكس وجهتها.

إنها متردِّدة، إنها متردِّدة.

مياهُ النّهر غاضبةٌ من هذا.

غضبُها يَصَّاعَدُ شَفراتٍ

تُصيب الكثير من صغار الطير.

هل أبْقى على هاته الضِفّة

التّعيسة؟

يَمرق أمام عينيّ طائر

إنّه يشحب ويشحب

ربّما هو خائفٌ من الشَّفرات

ربما هو يتذكّر الشجرة

التي احتضنتْ

حُبّه الأوّل.

أأبقى هنا

مُنصتاً للقَرْع المتصاعد

مِنْ عظامي؟

زمنُ القَتَلة

(إلى طرفة)

كان يَحْلو له

أنْ يُغَنّيَ في حذائه

لا يُحبّ أنْ يُؤَلِمَ حجراً

لا يَحْتمل أنْ يزدري زهرة

وشَعَرَ أنّهُ مُفْرَغ من الكينونة

أنّه أصبح يُشْبِهُ عُصْفوراً

قيّدوا قائمتيه

أنّ الهواء يَلُفّه

ويُضَيّق عليه

وأنّه لم يعد يُطيق

أن يعيش بينهم

تسكّع طويلاً

في أزقّةٍ مُعتمة

شرب حتّى شعشع ظِلُّه

وتركهُمْ يَفـصدون

عِرْقـه الأكحل

اكتئاب

وطنُ العين

مَحجِر أو منطاد

بالمنطاد يمكنك الصّعود

في الفضاء

وصهيلُ الأرض

ينداحُ من كتفيك غناؤها من

عينيك

العيونُ قد تكون مستطيلة

وأحْيانا على شكل مُنمنمات

قد تَغْمِز العُشب تُقَبّل النّدى

فلها شفاه

ورُبّما تجوبُ حاناتِ المدينة

أثْناء نوم أصحابها

آه! في تلك الأيام

في تلك الأيّام الخوالي

كُنا شَعباً قويّ الشّكيمة

عيونُنا تقْذِفُ العَدُوّ

بِشُهُبٍ بحجارة من سِجّيل

من أجل ذلك، كان يَكْفي

أنْ ننقعها لليلة كاملة

في يُودٍ قويّ

ثاقبةً كانتْ أبْصارُنا

فيها يُسْمَعُ هديرُ الموج

وتنْعكس ملاحمُ عظيمة

لكنّنا كنّا أيضاً نتعذَّب

حين نتذَكر أنّ عيونَنا

كانت، يوماً بعد يوم، تزداد

تَصَلُّباً

وها نحن، واحداً فواحداً

ننزوي، كئيبين، كلٌّ في قعْر

موجة

لأنّ لنا عيونَ غرقى

لأنّ حياتـنـا

خالية من الدّموع

ما إنْ تقف أمام كهف

أنْفاسُكَ ضالعة في المؤامرة التي حيكتْ ضدّ أجِنةٍ غُرسوا في الثلج. والبجعُ الذي ينبثق من كتفيك يُثيرُ قلاقل في جنبات المدينة. تُرافِقكَ صبيّة تزعمُ أنّها ابنتُك، لكنّها مُجرّد فراشة متنكرة.

مع ذلك، فأنت تُدَدّقُ طويلاً في أعناق المارّة في سِيقان الخزامى. لذا، فأعداؤك كُثر. وما إنْ تقف أمام كهف يَهُبُّ منهُ جنونُ نملة حتّى يُجرّدوك من أحلامك، ثمّ يُعيدوك، على مراحل، إلى ما قبل الولادة. بعدها يقولون: يُقيمُ في كسوف دائم، مع الفجرِ يَسْرقُ أصْوات المتثائبين.

كُنْتُ من أبطال هوميروس

أريدُ أنْ يبقى النّسيم على أناقته

أن تحضُر الفرس في الموعد

وأن تمضيَ بي

في الوِجهة التي تختار

أريدُ نهراً يُوَشّح صدري

فالبارحة، رأيتُ في الحُلم

أني نازلتُ آخيل

في الإلياذة

في الواقع، لا أُصِرّ على شيء

مِن هذا

فأنا الآن هادئ

وعيناي وحدهما العنيفتان

بـمـزْمـاري

بنغماتٍ مِن مزماري الذهبيّ

الذي ورثـته عن أسلافي (كانوا

يَغرسون أشْجاراً فتبدأ

في الغناء

وكانت الأنغام

حريرَهم الذي يَصْنعون منه القُمْصان...)

بموسيقى مزماري الذهبيّ

سأستدرِجُ واحةً

إلى هذا البُسْتان الكئيب

بنبتاته الصّفراء التي

لم تعرفْ قطّ الحُبّ

بناطوره الأعمى

الذي لا يُمَيّزُ بين الأرْضِ

وباقي الكواكب!

آه! هذه الوحشة تلزمُها

واحة

هذا البستان

في حاجة لنغمات

يـوتـوبيـا

أخيراً، أيّها القلبُ بوحشتك

القليلة الغامضة

تنزلُ من نجمتك الأليفة

واضعاً يَدك في يدي

يا قلبي الذي غطَّى حدائق

بالنبضات

وها أنتَ، يا هذا الضّوء

تهُبّ متحمّسا

فقد ائتمنتكَ الطّيور

على وميض دمائها

والملَّاحون الشّجعان

التحقوا بنا

بعد أن أجبروا قراصنةً عُتاة

على التخفي في أرحام

بنادقهم

أنا، أيضا، مُتهيّئ

فقد كنتُ من مشاهير الكماة

وذاك ما تشْهد به طحالب الهواء

التي اخترقتـها سهامي

مُجتمعين، سنُفلح بكل تأكيد

الضّوء سينيرُ طريقنا

والملاحون سَيمخرون بنا عباب البحر

وقوسي وكنانتي

على كتفي!

سنُحرّرُ الأمواج من حياتها الرّتيبة

ونجعلها تمشي على أقدام

سنمنحُ هذه الأشجار التّعيسة

ذكرياتِ طفولة

ومرايا تبدو فيها

غيداً مرحات

وتُقيمُ لهذي الشموس التائهة

الفقيرة

أعْشاشاً بين السّوسنات

وبقصائد مضيئة

سنفتدى سَبايا الحُروب القديمة

والغيمةَ التي ما زالوا يأسرون

في بنطال قديم

لماياكوفسكي

ومن تشأْ من الصّبايا

اللواتي تحولنَ إلى أسماك

تُعِدْها سيرَتها الأولى!

يقيناً أننا، مجتمعين،

سننجح!

وقــــائــع

هذا الصّباح، لاحَـقـتـني

على امتداد شارع السّنجاب

- حيثُ، دَوماً

أقوم بنزهتي-

شجرة ذاتُ أنفاس حَرَّى

ذاتُ قوائمَ وبريق عين

وحين ابتَسَمْتُ

اِنقلبتْ شجرة عادية

لها جذورٌ وعصافير!

يا أنا يا أنا

ها هي خلفك الآن

فإذا غنّيتُما معا

سيُغْمى على الغيوم!

وأثناء الظّهيرة، كُنْتُ أمشي

على الشّاطئ

وكانتْ، أيضا، تتبعني!

كانت تثيرُ زوبعة رمل صغيرة!

فقلت: يا أنا يا أنا

إنْ دغدغتَ إبْطها

فستهذي بأسمائك

إلا أنّ شيئا من ذلك لمْ

يتحققْ فابْتَسَمْتُ

لكنّي تذكرْتُ غابةً بأكملِها

كانتْ، في واحَدٍ من أحْلام طفولتي

قد اجتُثَّتْ

وفي لحظة التذكر الأليم تلك، حلَّ

الأملُ فجأة، إذ بدأتْ

غابتي الضّائعة

تتنامى، من جديد

أمام عينيّ

معافاةً، رهيفةً، منسابةً

على شكل شُعيرات سوداء

في عانة غادة

وقفتْ فجأة، وحيدةً، مَشيقةً

قُبالتي، واقتَرَبَتْ، جريئة...

ثمّ كان السّلطعون الذي

ينحتُ في الصّخر

وكان الأشيب الذي

يبيعُكَ رطل الكهرباء بدرهمين

وكانت مياه البحر

والفلكيّات البرمائيّات

اللواتي قد يخرجن في أية لحظة

من تلك المياه

ويمضين للتسكع في الحقول

آه! الفلكيات عاشقاتُ الأعشاش!

وكانت الشمسُ تُلوّح جسدي

لكنْ لا شيءَ من هذا كلِّه

يُمكنُهُ أن يَعْدِل عندي

خطوةً

في شارع

السّنجاب

حكاية

رَجلٌ مفتول العضلات

يستطيعُ أنْ يُلاكِمَ الزَّبَد

مع هذا، جِدّ رقيق

رأى يَدَي الفجر تُقطعان

فأجهشَ بالبكاء

ومن دُموعه

تكوّنتِ اليدان مُجدّدا

أكثرَ من عشرين مرّة، نزل الدَّرَج

نحو غُرْفة الأحد

في كل مرَّة، يطرق الباب مُطَوّلاً

ولا من مُجيب

بَدأ شكُّه يَهصره

وأخيراً، أدرك أنّ الأحد قد اختفى

أنّ الأيام المُتبقِّية

في حِداد

وأنّه يطرقُ بابَ غُرفةٍ فارغة

إلا من رائحة الدّم

وبقايا كوابيس

عَياء

لا تطلُبي منّي أنْ أشرب

كأساً أُخرى

من هذا الشّراب الزّعاف

وإذا شئتِ أنْ تقولي للعالم

وداعاً

دعيني أنا أُكْمل تماريني

وأتسلَّق جِبال قلقي

فالقلِقون، كثيراً ما يُفَكرون

في التماعات الأزهار السّوداء

وكثيراً ما يستشعرون في رئاتهم

آلامَ المسلولين

والتّعاسة هي ضَرْبٌ من الموسيقى

والطّيور المعدنية

التي يجري في عروقها الزّئبق

مع الأنْغام

يُمكنها أن تُحَلِّق حتّى داخل دم

الأغصان

أُتركيني قلِقاً

حقّاً، إن قلتِ وداعاً

سَتسري في عظامي

صلواتُ النُّجوم الخَرساء

غير أنِّي الآن، ما أزال

في سُكونِ كأس السّموم هاته

التي تُلامِسُها أصابعُك

برهبة والتذاذ

وقفتُ إلى جانب البئر

أنتِ لستِ الآن في الغرفة- لأنك تبحثين في الحديقة، عنِّي أو عن السّحليّة التي غارتْ في رائحة العسل- فيما، من النافذة، تدلف الآهة، قادمة من فم بعيد، فتُحدّب ظهور المناضد وتُحيل أغنيتي إلى غبار.

أنا الآن على الشاطئ: أمامي السَّحرة، صهْدُ عيونهم حوّلَ بيوتاً عديدة إلى دخان. العالم رهيب، يُكرّرون، فتنشبُ حروب ويتساقط نخاع شوكي كثير في صحون الباذنجان المقليّ وتشتدّ آلامُ كلَّ هائم...

سألتِني مرّة هل تُزعجني قرقعةُ عظامك أثناء النوم. حدث ذلك ليلةَ شابَ القمر. وكان الألمُ يتساقط مُوهِماً أنه مَطر. ومضينا معاً إلى الحديقة، فوقفنا إلى جانب البئر التي تَحلم ببلد بعيد.

وها أنا، من جديد، أُمرّر يدي على سنام منضدة، وأُدرك أني لن أذهبَ غداً لِرؤية عظام جدّي، وأنك ستصفينني بالكسول، العبثيّ، بالتائه الأبديّ

أحياناً، تكون ماضياً في طريقك، فإذا بنحلة تعترضُ سبيلك، تتمدّد أمامك

في عرض الشارع، فتبقى واقفاً فوق ضحكتك، ويحيّيك صديق يُوناني يَبذر قمح الإلياذة في أثلام كفــه اليسرى، فتقف مشدوهاً، إنْ لمْ تلذْ بالفِرار.

التقيتُ بالحصان

أمضي شاحباً، لا أتوقف إلا جنب الفتاة التي تمدّ يدها فوق بحيرةٍ تقولُ إنّ ماءها سينضب إن استمرّتِ السمكة الحمراء في عضّ الطحالبِ ذات الأحذية الحديد.

تقول: إنكَ شاحِبٌ لأني امتصصت لسانك وأنت نائم.

وأنا لم أركب اليوم حصاني لأنه كان قد نسي حدوة يومَ بلغ أشدّه قرب جدولٍ، وأصبح يهاب الضِّفاف!

التقيتُ بالحصان في آخر تانغو بباريس، وبالفتاة حين كنّا نلبس جوارينا أمام إحدى الكاتدرائيات، وسرعان ما وجدنا نفسينا نَصْفِرُ في طنجة. روتْ لي كيف كانت ترسم دوائر خضراء لِيُرَبِّيَ فيها الشِّتاء أغنامه. وقالت إنَّها بدورها ربّت فراشة من هيدروجين في شَعْرها.

أخبرتُها بأني، في الطفولة، كنت قد ركلتُ تمثالا، فاخترقتْ شُعلةُ قنديلٍ حشداً من الكلاب نحوي. وكنتُ، كلما تشكّلتْ قارورة من ظلّ يمامة، أسارع

إلى مَلْئِها بماء بارد!

قالت: أنتَ نهري الشّاحب، أنت نَهري.

والتفاحة في يدي...

كيف يمكنني أن أشعل السيجارة،

وكلّ القدّاحات تَخَفّـتْ في رُدنيك، مُـذ رأيتِ في الحلم أنك تُحرقين خدِّي.

بالأمس، كنّا في الطريق إلى عيادة الطبيب، ومـرّ أمامنـا صـديقي المجنـون، وكان يكرّر: النّحلة تحت السّاطور، النّحلة تحت السّـاطور، وشـعرتُ أنّي سـأبكي أو أضحك، لكنه اختفـى سـريعاً، وكـان دمٌ ينسـابُ من الحُقن التــي تَخبّ جنب أقـدامنا، والطّقس بـداخل آذان الكلاب يتحـوَّل من فـاتر إلى شديــد الـبرودة، وفي الأعلى، عين الرعد تتّسع وتتّسِع.

لماذا تريدين إحراق خدِّي؟

مسـحتُ أعصـابي بإسـفنجة كمـا يفعلـون أحيانـاً بأعصـاب السـيارات ثم وجـدنا نفسـينا على الشـاطئ، وأردْنـا أن نتأمـل البحـر. لكنْ لم يكن قـد بقي منـه إلا سبعُ موجات عجاف، يَحملن في مقاعدهن الخلفيـة سـبع نسـاء ضـاحكات. إلى أين يتّجهن بهن؟ في كفّ كل امـرأة شـمعدان. وفي الجُحـور القريبـة، سَـقط

مطر على الفـئـران. وكان هنالك من يَطوي البُـسُـط ويَفْرشُ الصرخات.

والتفاحة في يدي تكاد تختنق. ويدكِ تعبـثُ بشعري.

الطبيب قال لا تركبا، بعدُ، سيارة جريحة.

انتظار

يُطلقون العنان لأنفاسهم، وينتظرون الأوتوبيس، ومِنْ حولهم الهواء بارد ومُغَضّن، ويثير الرّيبة. تدبّ الرّعشة في الأجساد، بسبب رائحة قوس قزح، وتُقضقض أسنانُ الهيكل العظمي المركون مع الدراجات إلى جدار الفندق القريب من النّهر.

الرَّجل النحيف يبتسم لفتاة قبالته، تَقْرعُ الهواء البارد بمطرقة العُنُق.

وارتفعَ صوت، فارتطمت ركبتان بِصَداه. أكانت تلك الهمسةَ التي قصمت ظهرَ الجمل؟ ثم وجّهَ المطر مسدّساته إلى أصداغ السيارات. في الوقت نفسه ضغطَ الموسيقيّ على زناد الأرغن. والحافلة لا تأتي، لكنّ تابوتاً مَرق على عجلاته المضيئة.

واكتشف الرجل النّحيف أن طائر الرّخ ليس سوى بناية من ريش. آن لنا، إذن، أن نتعقّل. أن نحنوَ على الفراشة الصّماء التي تقترب منا. على الطفل الذي عَلِقَتْ قدمُه بين أسنان الصابونة.

طبعاً، أنا الرَّجل النَّحيف. أما الطِّفل فهو العبقريّ الذي اكتشف المعادلة.

كنتِ قد أيقظتني من نومي لتسألي: أيُّ معادلة؟ ألا تعملين؟ تلك المدونةُ على عانة قارورة العطر. التي ستُمكّن يوماً ما من إنشاء طوفان صغير. من الإنصات إلى بوح تـنّورة. ومن صُنع قفازين للهيكل العظمي الذي يعطس مركوناً إلى جدار الفندق.

قبل أن نخرج لننتظر الأوتوبيس، أطللتُ من النافذة، فإذا بالرَّابية، قبالتي، عارية تماماً. شعرتُ بالذنب لكوني تَلصصْت. ثم سِرْتِ أمامي لكي نَنتظر، تقرعين الهواء بمطرقة العنق.

السّواطير السّيكوباتية تُحلِّق جنب نوافذ الفندق، ولا يأتي الأوتوبيس. نُصابُ بِرذاذ القهوة التي تهمي من عين الغراب، ولا أمل. تتكاثر الشفاه حول الأشجار، وأُعديكِ بألمي، ولا أمل.

والآن تَظهر الشّمس، وسرعان ما تتّخذ شكل قاطرة. ومِن غرفةٍ في الفندق، يتناهى إلينا نواح: إنها امرأةٌ تبكي طفلها، رهينَ الحمام على الدّوام، بعد أن علِقتْ قدمه بين فكَّي الصابونة. وهنالك شاعرةٌ تـرْمش بسرعة بسبب نَزق العصافير. وراعيةٌ تبكي بعد أن سَرى السّمّ في دمِ رابية عارية. إنها نفس الأصوات التي، ربما، كنتُ سمعتُها صبيحةَ صلّى جدي على

سجّادة من الصّمغ فبقي ساجِداً طيلة النهار حتّى فككناه. في ذلك اليوم، تمكنَتْ واحدة من دموعي من عبور ثقب إبرة، وتمّ العثور على مصائب قوم عند قوم آخرين، وتأجّج دمُ جرادة، فسُحِبتْ أسماء الحشرات منْ معاجم كثيرة. وها أنتِ الآن تستوردين الهمهمات من ذاكرتي. فهل ستُنَقّبين معي عن الأسرار المخبوءة تحت ياقة فراشة؟

ويُقْبل نحونا التابوت على عجلاته. يقف أمامنا، نحن المنتظرين. التابوت فارغ، يستلقي فيه واحدٌ منا، فيُقلع به إلى مكان مجهول.

وتتكاثر الشّفاه حول الأشجار. وتمرُّ الدراجات الحزينة. ويُعديكِ دُبي للتّيه. وإذْ يتكاثف الغبش، نُعلن، نحن منتظري الأوتوبيس، إجلالَنا للمجهول الذي سافر في التابوت.

إنْ كُنْتُ منْذُ الصّباح...

لسْتُ من يُجامل. أتركُ قلقاً ينْسابُ في بُلعومٍ أو في أنابيب القصب، حسَب الطقس وكيفَ هو مزاجُ زهرة الآس على كتف النّديمة لينا. وإنْ كنتُ منذ الصّباح في هذه الحانة، جنب هذه النّافذة، بعظامي التي تتحمّسُ أيّامَ المآسي، فذلك للتعبير عن تضامني.

مع مَن؟ يُسائلني بعينه المخمورة البدينُ الجالسُ قبالتي، وكنتُ حسبته يعلم...

مع من! مع أولئك الأقزام الذين جعلتْ منهم الغابة القريبة أشْجارَها القَصيرة!

الأَوْلى الآن الإنْصاتُ لِصَفير أظافري المأخوذة بِحُلمِها المُتَكرّر، حيْثُ أظْهرُ، بدايةً، في شاطئ. بعدها، تقتربُ منّي امرأة في لباس ممرّضة- يتّضحُ أنّها ليستْ سوى لينا- حاملةً في يدها حقنةً تقولُ إنّها مملوءة بفودكا روسيّة خالصة! ثمّ تُوجّهُ إبرتها نحو ذراعي!

فجأةً، أتنبّه لِما حَولي.

وأُشيحُ بوجهي نحو النّافذة، فما الذي أراه في الأعالي؟

طيـورٌ غريبـة تحلّـق فـوق الغابـة القريبـة، الـتي جعلت من أولئـك الأقـزام المساكين أشجارها القصيرة!

فهرس:

كوكبٌ مُعربد...

لفائـف سحريـة (1)

لفائف سحرية (2)

لفائف سحريّة (3)

تـرْسـو المُـرَبّـعات

حتّى الصّحْراء

في ربيع العمر

أصنعُ سهاما

ليتَ لي

حيـرة

ذِكْـرى

بِحنين

البِـئـر

رسـالـة إلى نفسي

زمنُ القَتَلة

اكـتـئـاب

ما إنْ تقفَ أمام كـهـف

كُـنْـتُ من أبـطال هوميروس

بـمـزْمـاري

يـوتـوبـيـا

وقائع

حكاية

عـــيـــاء

وقفتُ إلى جانب البئر

التقيتُ بالحصان

والتفاحة في يدي...

انتظار

إنْ كُـنْـتُ مـنْـذُ الصّـبـاح...

نبذة عن صاحب المجموعة

وُلِد مبارك وساط سنة 1955. وقد صدرتْ له المجموعات التالية:

- على دَرَج المياه العميقة (طبعة أولى، دار توبقال، الدّار البيضاء، 1990.).

- ثلاث مجموعات في كتاب شعري صدر عن منشورات عُكاظ في سنة 2001، وهي: 1-على دَرج المياه العميقة (طبعة ثانية، مُراجعة ومنقّحة)، 2-محفوفاً بأرخبيلات، 3-راية الهواء (متوالية شِعْرِيّة).

4-مجموعة رابعة: فراشة من هيدروجين (دار النهضة العربية-بيروت، 2008).

5-مجموعة خامسة: رَجُل يبتسم للعصافير (منشورات الجمل، بيروت-يغداد، 2010).

6-مجموعة سادسة: عُيونٌ طالما سافرتْ (منشورات بيت الشِّعر بالمغرب، المغرب، 2017).

وقد صدرت له، أيضاً، مجموعة شعرية بالفرنسية والعربية، تحت عنوان:

Un éclair dans une forêt

(دار المنار، باريس).

وفي مجال الترجمة، صدر له: شذرات من سِفْرِ تَكوينٍ مَنْسِيّ، لعبد اللطيف اللعبيّ، نادجا، لأندري بريتون، التحوّل، لفرانتس كافكا، الأبديّة تبحث عن ساعة يد، وهي قصائد مختارة لأندري بريتون...

حتّى الصّحْراء

أُفكّر: لِمَ كلّ هذي الدّموع

التي تتشكَّل خِفْية

تحْت أظافرنا

ولِمَ تتوجّسُ الأشْجار

من شُعوب العصافير

أفكّر: يجبُ أنْ نستمرّ في السّير

حتّى الصّحراء

التي تَنْبت فيها

المسامير

أحياناً، يبدو لي

أنّه لا مبرّر لوجودي

سوى أنّي زاوية

في مُثلّثِ رعشاتٍ

برْقٌ في غابة

شَررٌ في عيون

الصّيف

فراشة من هيدروجين

- طبعة 2020 -